

قصة واقعية

لغائب الإنجليزية بياض رز رز
بقلم الأستاذ محمد عبد الفتاح محمد

جميلة فتاة ، وجهها يشع النور ،
وأنفاسها تبسح المطر ، وقامت
تبعث الإكبار والإعجاب ، وهيبتها
تفيض على المكان روعة وجلالاً ،
وتنفث فيه سحراً وجمالاً . لذلك
لم أحاول أن أفر منها ، أو أتجو
من الرعب الذي بثته في جوانحي

وحواشي . كان شعرها الكستنائي مصففاً حول
وجهها في أسلوب رائع خلاب إلا بضع خصلات
راحت تنوس على نحرها العاجي المنور . كانت تبدو
صورة رائعة خلقها ريشة فنان صناع ، أكثر مما
تبدو امرأة ذات روح . وأغضت عيني في قوة
وعنف ، وعند ما فتحتها كانت قد اختفت

ولست أدري لم أحجعت عندما عدت إلى مثواي
عن التحدث في أمر هذا الشبح الجليل كالتألم
لم دأبت على الذهاب إلى تلك البقعة - يساورني
ضيق من الخوف والأمل - لعل أراها ثانية .
واستمرت تحضر حتى في أثناء المواصلات الموحية ،
والزن المتهون . ويبدو أنه لم يكن لها أي سلطان
عليها ، فما كان المطر يحسها رذاذه ، وما كان الريح
يزعجها هبوبه ، كانت تنظر إلى نظراتها الحلوة ، ثم
تمر في صمت كالخيال . وكانت مرة بقربي تكاد
- أنا وهي - نماس ، فهبت خصلات شعرها
ومست خدي ؛ ومع ذلك لم أستطع أن أتحرك
أو أكلها .

وسقطت مريضاً عموماً . ولما أن تماثلت للشفاء
سألني أمي ، وألحقت في السؤال ، عن تلك السيدة
الطويلة التي كنت أهذي بها أثناء الحمى الشديدة
ولا أستطيع أن أصف لك اليأس الذي منيت به

كنت أدق في أثواب الصحة والمافية عند
ما كنت صبياً ، وكنت إلى هذا خيالاً الطبع أهيم
بالتفكير والتأمل . لذا كان من دأبي أن أتسلل في
غفلة من أترابي الصنار إبان لهوم ولعهم إلى غابة
ذات ظل ظليل ، وهدوء شاعري جميل ، وأنصت
إلى نعيم الغربان ، وشدو الطيور ، التي يبدو أنها
كانت تهم بالعلزلة هياي بها

وطال بي البقاء ذات مساء . وحذرتني ساعة
الكنيسة القريبة أكثر من مرة من تأخرى ،
ونبهتني إلى وجوب المسودة إلى مثواي . كان
السكون نحيماً والصمت شاملاً حول تلك الطبيعة
الساحرة ، لذلك لم أشأ أن أعكر صفوها بأقل
حركة تبدر من جسدي المستقر الساكن

وزعني من تألمي شبح أنثى ظهر أمام ناظري
فجأة ، امرأة هيفاء طويلة القدر راحت تسدد نحوي
النظرات الحزينة الحائرة . كانت في أثواب بيض
من الرأس إلى القدم ، في هيئة لم أرها قط من قبل ؛
وكان فستانها طويلاً فضفاضاً ، له حفيف كان يسمع
في أثناء غدواتها وروحاتها بين الأشجار الشجراء
كأنما قد صنع من حرير غال نمين . وأحسست قلبي
يشد وجيبه كأي في دور النزاع والاحتضار . وكان
في مكنتي أن أنمس للفرار سبيلاً ، بيد أنها كانت

لأدع كل ذلك لأتحدث لك عن يوم لم يكن، مع كونه أجل الأيام وأصفاهها، في جلال أو صفاء نظرات المذراء الصغيرة وهي تتحدث بوجه مستبشر منطلق عن الوليمة التي ستولمها ابتهاجاً بشفاء الصيف الكريم. قال الشاب :

— لقد حان الوقت يا سيدتي أن يقص عليك هذا الصيف الشاكر ، أسير فضلك ومعمروفك ، كل قصته ، وأن يحدثك عن شخص عزيز عليه ، سيعمل معه جاهداً على إيفائك حقك من الشكر . هل لي أن أطلب إليك يا سيدتي الكريمة ، فتكتبي عني رسالة صغيرة ؟ وقد لا أعدم في هذا الوقت الخطير المصيب وسيلة توصلها إلى صاحبها

فأخذت تفكر : « لأمه دون ريب » ثم سارت إليه بخطوات خفيفة وقلب خفاق ، وجلست بجواره وسألته أن يخلي رسالته . بيد أنه لم يكده يقول : « زوجتي العزيزة » ، ويرفع رأسه إليها لتطلب المزيد حتى وجد أمامه تمثالاً شاحباً ممتقماً ينظر إليه نظرة يأس قاتل ، ثم يسقط عند قدميه كجثة هامدة :

ولم تشع هاتان العينان منذ ذلك الحين السعادة والنبطة ، ولم تجب نظراتهما الحيرى الزائفة على أسئلة أيها الملاحه اللفانة

وعاشت بقية عمرها على الحال التي رأيتها عليها رقيقة حلوة دائماً ، ولكن لم يعد الرجل الذي تسبب لها في ذلك

وحرصت حتى أيامها الأخيرة ، على زيارة تلك البقعة التي رأت فيها الضابط الشاب أول مرة ، مرتدية تلك الثياب التي قال إنها تناسبها تماماً

محمد عبد الفتاح محمد

في خيالي ، والخيبة التي أسفرت عنها آمالي عند ما علمت أن ذلك لم يكن شبحاً من الأشباح ، ولا طيفاً من الأطياف ، وما كان إلا امرأة حية من لحم ودم ، ليست شابة صغيرة برغم نظراتها الحلوة الفتية . إذ أن الحزن العميق الذي أترع نفسها ، والصدمة الشديدة التي منى بها قلبها ، أبقيا على جمالها وحسنها . عند ما ارتد جيش الثوار مدبراً عقب هزيمته المنكرة ، تخلف في هذه الغاية التي كنت بها أهي ، ضابط قعدت به جروحه الأليمة عن متابعة رفاقه ، فسقط عن جواده وأسلم نفسه للموت . وأعتر الحظ عليه ابنة السير هنري ... فحملته بمحبة خادم أمين إلى قصر أبيها ، وكان السير هنري من أنصار الحكومة ، بيد أن حال الضابط الجريح استدرد عطفه وإشفاقه ، ودلت جروحه على بسالة لا تنكر وشجاعة جديرة بالإعجاب . ودافعت ابنة السير هنري عن الضابط الشاب دفاعاً حاراً ودموعها هواطل ، وأعلنت أن الواجب يحتم عليهم حمايته والتستر عليه والعناية به . وقامت هي على تمريضه (إذ ماتت أمها منذ بميد) أساميع عديدة . وراقبت في لهفة أول نظرة سددها الضابط الواهن الضعيف إلى عمرضته الصغيرة معبراً عن شكره وامتنانه

وأحسبك مدركاً أيها القارىء دون أن أخبرك أنها - وقد اندملت جروحه - تلك اللحظات السعيدة التي كانت تنقضي في القراءة ، وفي التفتي بصوت خافت لطيف ، وفي التوقيع الجميل الأخاذ على القيثارة ، وفي جمع تلك الزهور التي تقدم باصرى جروحه عن جمها لنفسه ، وكيف كانت تمر الأيام هادئة جميلة ، مترعة بالنبطة والسعادة لمودة الصحة وحلول الشفاء يسودها الهدوء والراحة اللذان يشملانه